المقاومةُ وَطنٌ: (غزة) في قصيدةِ حرب

أ.د. علي مجيد البديري
07767368355
البصرة

ارتباطُ الإنسَانِ بالمَكانِ جَدليٌّ وحتميٌّ وقديمٌ؛ وعلاقةُ التَّساكُنِ مَا بينَهُما مُتصلةٌ، فكلٌ منِهما يَسكنُ الآخرَ، ويُسهِمُ في تشكّلِ هويتِهِ، وهما يقتسِمانِ حَالاتِ الأمنِ والسّكينةِ والرّخاءِ، كما يَتشاركانِ في الألمِ وشَظفِ العَيشِ في ظروفِ الكَوارثِ والحُروبِ.

(غزّة) المَدينةُ الفلسطينيةُ التي تَعيش جَحيمَ الحَربِ وتَختارُ _ بيقينٍ كَبيرٍ _المُقاومةَ أو الشّهادةَ مَصيراً لا ثالثَ لهُما، كانتْ موضوعَ قصيدةٍ لشاعرٍ روسِيّ لمْ يَعِشْ حربَها جَسداً، بل لامَسَ واقعَها رُوحاً وقَلباً وضَميراً، القَصيدةُ تحملُ عُنوانَ (يا كوكباً يتلوّى بألسنةِ النار!) لـ (إلكسندر بروخانوف)[1] الأديبُ والصحفيُّ الرُّوسيّ، مِن مَواليدِ 1938، لهُ نتاجٌ في الشّعرِ والرِّوايةِ، ويزاولُ أنشِطةً مُجتمعيّةً نالَ عَنها وسامَ صَداقةِ الشّعوبِ عَام 1988، كتبَ هذهِ القَصيدةَ مجسِّداً فيها وَحشيةَ القتلِ والتدمِيرِ الصّهيونيّ لأرضِ غزّة، ونُشِرتْ في وقتِها بوسائلَ إعلامٍ روسيّةٍ عَديدةٍ، وقامَ بترجمتِها إلى العَربيّةِ الشاعرُ الفلسطينيُّ عبد الله عيسى، نقرأ منها:

غَزّة

يا كوكباً يتلوى بألسنةِ النارِ

أينَ سأهربُ من لعنةِ الرُّعب

ها يدُ طفلٍ شهيدٍ تُمَدّ إليّ

لتنجوَ من الموتِ تحتَ الدَّمار.

هذا هو اليَاقوتُ مُحترق

وفي جُرحي المدمّى

جَعلوا بيتَنا القديمَ قبري

وبفأسٍ بِستِّ رؤوسٍ

قَطعوا شَجري وَداسوا زَهري.

على نحوٍ يذكرُنا بِما عُرف باسمِ (أدبُ الخَنادِق) في الأدبِ الرُّوسيّ ما بعدَ الحَربِ يَختارُ الشاعرُ هنا استهلالاً لقصيدتِهِ يجعلُ فيه المدينةَ نفسَها أرضاً للمعركةِ؛ ليسَ مِن خندقٍ هنا ولا جَبهة قتالٍ نائيةٍ عندَ ثغورِ المُدنِ كما هوَ المُعتادُ في الحَربِ، لقدْ تحولتِ المَدينةُ بناسِها وبيوتِها وأسواقِها إلى جبهةٍ حَربيّةٍ، وإلى أهدافٍ مُباشرةٍ للقَصفِ والقَتلِ والتَدميرِ. وتذكرُنا عِبارةُ الاستهلالِ بكثيرٍ مِن الأعمالِ الأدبيةِ التي أنتجَها هذا الأدبُ، كروايةِ (لحظةُ الحَقيقة) لبوجومولوف، وروايةِ (الحَربُ هيَ الحَربُ) لكوروتشكين، حينَما يَعلو الدُّخانُ مُفتتحَ مشهدٍ مِنها، ويَنكشفُ عنِ دِماءٍ وجثثٍ مُتناثرةٍ، ولا شكَّ أنَّ الشاعرُ قد أفادَ في تَشكيلِ استهلالِ قَصيدتِهِ من ذلكَ، فاختارَ مِن بينِ ألسنةِ المَحرقةِ الكبرى التي تلتهمُ كلَّ ما ينبضُ بالحياةِ على أرضِ غزة، مَشهداً عريضاً يصوّر فيهِ الأرضَ والإنسانَ وهما يقبعانِ تحتَ وابلٍ من القنابلِ يكادُ لا ينقطع، وتُشعِر جملُ الوصفِ القارئَ بتعاطفِ الشاعرِ الكبيرِ مع هذا المشهدِ الاستثنائي الذي يَشي الإيجازُ والتكثيفُ في بنائهِ بعجزِ الشعرِ عن الاسترسالِ في الوصفِ وتصويرِ تَفاصيلِ المَأساةِ. والموجِّهُ الأكبرُ للشاعرِ في ذلك تماسُّه الكبيرُ مع شعبِ غزّة، وإحساسُه العميقُ بمعاناته، فنجدُه يقدّمُ للقصيدة بعَتَبةٍ وَصفيّةٍ يذكرُ فيها واقعَ الحياةِ في غَزة، حينما زارَها في رحلةٍ سابقةٍ له، يقول: ((كنتُ في هذه الشريحةِ الصَّغيرة من الكرة الأرضية التي تحيطها إسرائيلُ بجدارٍ خرسانيٍّ عِملاق، على طولِهِ يوجدُ شريطٌ من الأسلاكِ الشائكةِ، وبها أبراجٌ تحملُ رشّاشاتٍ وأجهزةِ رؤيةٍ ليلية، وعندما يقعُ أيُّ جسمٍ حيّ مُتحركٍ في طيفِ أشعةِ هذه الأجهزة _ ليسَ شرطاً أنْ يكونَ إنساناً بل بَقرةً أو طائراً كبيراً _ فإنَّ

الرَّشّاشاتِ تفتحُ النارَ وتقتلُ هذه الحَياة))[2]. هو لا يَرى في هذه البُقعةِ الصَّغيرةِ من الأرضِ إلّا كوكباً مُحَاطاً بالموتِ، ولكنَّهُ _ على الرَّغم من ذلكَ _ يَنبضُ بالحَياةِ التي تُمثِّلُ في الحَقيقةِ شكلاً من أشكالِ المُقاومة ورفضِ الاحتِلالِ ووجودِهِ، تقومُ على مُكابدةِ المَوتِ ومُقاتلةِ العدوّ، حَياةٌ ساخنةٌ تَحتَ مَرمى القَتلِ والتَّدميرِ تُصرُّ على الجِهادِ بتحَدٍّ كبيرٍ:

مِن قلبِ الجُرحِ السَّاخنِ في الجَسدِ المشقّى
ينزفُ الدَّمُ القرمزيُّ
وفي غزّة، هذه الأنفاقُ السَّوداءُ
تفضي إلى كَنَفِ السَّماء
عندما ألهبتِ النارُ ذيلَ الصَّاروخ
وأبرقَ الرّعدُ مرتجفاً في الفضاءِ
رفعتْني الأرضُ أعلى
لأحرقَ دبابةَ الميركافا الإسرائيلية

تتشكَّلُ المُقاومةُ هنا عَلى نَحوٍ ثانٍ؛ فالإصرارُ على الحَياةِ ودَفعِ المَوتِ ومُجابهةِ وَحشيةِ العَدو تبدأُ مِن الجِراحِ والنَّزيفِ، وقد عَمدَ الشاعرُ بطريقتِهِ هذهِ على ترسيخِ السِّمةِ الأساسيةِ للمشهدِ عَبر تفاصِيلِه المُتراكِبةِ فوقَ بعضِها البَعض، والمُتجاورةِ من ناحيةٍ أخرى مع توحُّدِها في إثارةِ إحساسٍ واحدٍ، وهوَ ما يُجسدُ مرجعيّة المَشهدِ الواقعيةِ وهَيمنتِها على النصّ، إذ يستمدُّ تفاصِيلَه مِن البيئةِ الواقعيةِ لا المُتخيّلَةِ، ومِن الحَدث الواقعيّ بجميعِ تفاصيلِهِ ومساحَتِهِ، فالأنفاقُ فوهاتٌ تَشتعلُ مِنها الصَّواريخُ، وتُلهبُ السَّماءَ بالرَّعد، مُحرِقةً العدوَّ وأسلحتَه التي يتبجَّحُ بتطوّرها وقوتِها الفائقَةِ.

ويأتِي إيقاعُ الوَصفِ سريعاً جداً، يَجمعُ بينَ الدَّمِ والمَوتِ والخَرابِ، وبين فعلِ المقاومةِ والجهادِ، مَعالمُ سطحِ الوَطنِ مُخرَّبةٌ، ولكنَّ أنفاقَهُ عامرةٌ بروحِ الجِهادِ، وهيَ لا تكفُ عن ضَربِ العَدوِّ وإيلامِهِ، والشاعرُ لا يبذلُ جُهداً كَبيراً في خَلقِ عَلاقةٍ موحَّدةٍ قويّةٍ ما بينَ دلالاتِ المَادةِ الشعريةِ في المَشهدِ، فهي تَصنعُ دلالاتِها عَلى نحوٍ يوفرُهُ السياقُ الذي تَجتمعُ فيهِ؛ سواء في ذلكَ السِّياقُ

الوَاقعيُّ الخَارجيّ أو السّياقُ اللغويّ فيَ النَّص. ويَتجلّى ذلكَ في أنَّ مفرداتِ المَشهدِ الذي تصفُهُ القَصيدةُ مُنبعثةٌ من داخلِها أو مِن داخِلِ المَشهدِ لا مِن خارِجِهِ؛ فالوَصفُ لغزة/ المكان يَستجيبُ لباعثٍ داخليٍّ، فكلّ مفرداتِ المَشهدِ تَتفاعَلُ مَع الحَدثِ، وتَنطِقُ بِما يَحدثُ، ويُصاحِبُ الوَصفَ وتَسارعَ وتيرتِه تَصعيدٌ في التوترِ يُوازيه ويُثريه دلالياً.

إنّ بَشاعة ما ألحقهُ العَدوُّ بالمَكانِ يُعادِلُ مِن جَانبٍ آخرَ الإنسانيّةَ المُنهزِمةَ والمُنسَحِقَةَ تحتَ وَطأةِ هذهِ الوَحشية، غير أنَّ المكانَ يُؤدّي دَوراً جَديداً هنا، يكونُ فيهِ وِعاءً حاضِناً للذاكرةِ والحَياةِ، بَاعثاً في المَوجوداتِ الحَياةَ، على الرَّغمِ من استباحةِ القتلِ إياه، وبخِلافِ ما عَهِدنا قراءتَهُ في قصائدِ الأمكنةِ مِن أنَّ الذكرياتِ والنَّشاطَ الإنسانيّ هما من يمنحانِ المكانَ حياتَه، تؤدّي (غزةُ) هنا دَوراً مَعكوساً فهي لا تكفُّ عنِ التَّحريضِ على مُقاومةِ القتلِ والإجرامِ والتدميرِ، ولا تمنعُها ألسنةُ النَّارِ التي تُحاصرُها مِن ذلكَ، فمثَّلتْ وِعاءً يَضمُّ الحَدثَ ضِمنَ سِياقٍ زَمنيٍّ مُحددٍ، ومكاناً له جَدليّته التي تَتجلى في تحوّلاتِهِ الزَّمنيةِ والوظيفيّةِ والجماليّةِ، عَبر فاعليَّتِهِ في النَّصِ بوصفِهِ جُزءاً مِن عناصِرِهِ البِنائيّة، ويكونُ دَاخِلاً بأكملِهِ فيه، مبتعِداً عنْ أنْ يكونَ مُجرد مَفعولٍ بهِ، خارجيٌّ بأكملِهِ.[3] وعلى هذا بإمكانِنا أنْ نَصِفَ النصَّ بأنهُ نصٌّ قائمٌ بذاتِهِ على نحوٍ مُميزٍ؛ يرتكزُ بشكلٍ كبيرٍ إلى المَرجعيّة الواقعيّة، الواقع فيهِ ناطِقٌ بنفسِهِ، أو صانِعٌ له، وليسَ للمُتخيّلِ والمُبالغةِ فِي الوَصفِ حُضورٌ فاعلٌ فيه.

ويَستمرُّ توالدِ صورِ المقاومةِ في خاتمةِ القصيدةِ، عَبرَ نهايةٍ مفتوحةٍ على الجهادِ والتحدي:

وطني الحبيبُ المُباركُ

حتى بينَ البيوتِ والسَّلالمِ المُحطّمةِ

وفوقَ أكوامٍ من الدُّروعِ المُتفحّمة

يُضيءُ الهلالُ الإلهيّ

وطني المُدمّى

أمي ارتقتْ بقذيفةٍ شَهيدةً

وأنا أضمّدُ جُرحي

أعدُّ سلاحيَ لحربٍ جَديدةٍ.

صورةُ المقاومةِ مكثفةٌ في مَقطعٍ نابِضٍ بروحِ التحدي؛ بينِ الرَّكامِ، مِن الدَّمِ بجنبِ الأجسادِ المُقطَّعةِ تُولدُ من جديدٍ وباستمرارٍ، والنصُّ في شكلِه النّهائي مشهدٌ يكتبُ نفسَه بنفسِهِ، ذلكَ أنّ محاولاتِ الشعرِ في الاقترابِ من ظُلاميةِ الحُروبِ تبقى صعبةً جداً، عصيةً على التصْويرِ والتمثيلِ، ويبقى حضُورُها الفعليُّ على أرضِ الوَاقعِ أعظَمَ وأكبرَ مِن أيّةِ قصيدةٍ يُمكنُ أنْ تُكتب عنها.

---

[1] قصائد غربية مناهضة لحرب الإبادة الجماعية على غزة: إعداد وترجمة: د. قاسم محمد الأسدي، أبجد للترجمة والنشر والتوزيع، ط1، 2024: 244

[2] المصدر والموضع نفسه.

[3] ينظر: شحناتُ المكانِ جدلية التشكيل والتأثير: ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 2011: 76